

الاغتراب ومظاهره في شعر سيد قطب (دراسة وتحليل)

فاروق نعمتي*

أستاذ مساعد بجامعة پیام نور

جهانگیر آمیری

أستاذ مشارك بجامعة رازی

علي سلیمی

أستاذ مشارك بجامعة رازی

عبدالسلام کریمی

طالب في مرحلة الدكتوراه بجامعة آزاد الإسلامية _ فرع طهران المركزية

(۲۳۸-۲۱۷)

تاریخ الاسلام: ۹۱/۱۱/۱۴؛ تاریخ القبول: ۹۲/۱۲/۱۴

الملخص

إنّ مظاهر الحزن والقلق وفقدان التوازن الفكري والاجتماعي، هي تجليات مختلفة للشعور الاغترابي لدى الإنسان. فالشاعر العربي المعاصر كإنسانٍ مثقّف وذي عواطف حيّاشة، سواء عاش في ظلّ الاستعمار أو في ظلّ أنظمة مصادرة للحرية يعاني من كلّ أنواع الضياع والغربة، فيفقد حينئذٍ إنسانيّته ويصبح عاجزاً عن التواصل مع المجتمع ومع ذاته المنسيّة. سيد قطب باعتباره مفكراً من أكبر المفكرين والأدباء الناهين في زمننا المعاصر، واجه في حياته صراعات مريرة مع الاستعمار والاستبداد الداخلي، وقضى مدةً طويلةً في صراعٍ فكري مع نفسه والمجتمع حوله. الابتعاد عن الوطن، والتبرّم بالدهر، والإخفاق في الحبّ وفقدان رعاية الأمّ، والإحساس بالضياع والتهيه في الدنيا والوحشة الروحية فيها، والضجر من المجتمع وتقاليده، وتجربة الاستبداد السياسي، هي من أهمّ عوامل ظهور الشعور الاغترابي لدى سيد قطب. فالمقالة هذه تعتمد في خطّتها الدراسية على المنهج الوصفي - التحليلي واستقصاء أنواع الاغتراب ومن ثمّ تطبيقها على نماذج شعريّة لسيد قطب كأديبٍ بارزٍ في الشعر المصري المعاصر، فهي تكشف عن أبعاد هذه الظاهرة الاغترابية من خلال أشعاره وتصل إلى نتائج تساعدنا على معرفة جذور شخصيّة الشاعر وخباياه الذهنيّة التي انعكست في شعره قبل أن يدخل في حقل الدراسات الإسلاميّة البحتة وقبل أن يصبح مفكراً بارزاً ومفسراً عملاقاً للقرآن الكريم.

الكلمات الدلّيلية: مظاهر الاغتراب، الشعر المصري المعاصر، شعر سيد قطب.

* البريد الإلكتروني للكاتب المسؤول: faroogh.nemati@gmail.com

١. توطئة

إنّ الاغتراب (Alienation) في الشعر العربي المعاصر بات شائعاً مع تعقيد وتفاقم أوضاع المجتمع، فالشعر في هذه الحقبة الزمنية كان منبراً يعبر عن الهموم وآلام وأوجاع الإنسان العربي بصفة خاصّة ومرآة صادقة تعكس المعاناة الإنسانيّة ومشاكل القرن العشرين، وتبرز أدراجه وأمراضه الاجتماعيّة، وسلبياته الحضاريّة، فصار الشعر مجلّيّاً للغربة والسخية والقلق والاعتراب. والأديب أسرع من غيره إلى الإصابة بهذا الداء، لأنّه يتمتّع بقدر عالٍ من الحساسيّة والرّهافة؛ ولأنّ «النفس تصنع الأدب وكذلك الأدب يصنع النفس والنفس تجمع الأطراف لكي تصنع الأدب» (إسماعيل، ١٩٦٣: ١٣). لذلك فالأديب يعيش صراعاً داخليّاً بين ما يشاهده على أرض الواقع وبين ما يريد تحقيقه فيها، ويركن شعوريّاً أو لا شعوريّاً إلى ما هو غير المألوف.

إنّ الاغتراب وإن كان ظاهرة قديمة تعود جذوره إلى هبوط آدم (ع) على الكوكب الأرضي، إلّا أنّه صار مفهوماً ومصطلحاً من سمات العصر الحديث، لما يميّز به هذا العصر من بواعث لهذه الظاهرة؛ ومن أهمّها الباعث السياسي الذي أسفر عن «إثارة إحساس الناس بالضيق في أوطانهم وبالذل في ديارهم» (روحي، ٢٠٠٧: ٢٠)، إلّا أنّ غربة الشاعر المعاصر تكاد تكون غربةً فكريّة؛ لأنّ «التغيّرات السياسيّة السريعة التي تعاقبت على العالم منذ أواخر الأربعينات، والشرخ الطبقي بين الفئات الاجتماعيّة المختلفة، قد أسهمت في تصدع الأبنية الثقافيّة والاجتماعيّة التقليديّة وهيارها، فأدرك المثقّف انعدام المعايير والقيم التي تحكم سلوك الفرد وتصرفاته ووجود هذه القيم وعدم فاعليتها مما أدّى إلى تنامي إحساس المثقّف بالغربة والانعزال» (أبو شاويش وعواد، ٢٠٠٦: ١٢٧).

وأما في شعر سيد قطب يأتي الشعور الاغترابي في إطار إنسانيّ مليءٍ بالمعاناة والآلام يُعانيها الإنسان جرّاء شعوره بالضيق والوحشة في هذا العالم الفسيح، فيأخذ هذا الشعور نطاقاً معرفياً واسعاً يشمل المعاناة التي عاشها الشاعر على مدى الحياة. وقد حقّقت الأشعار التي أبحّثها قريحة سيد قطب الخصبة في شرح شبابه بالأحاسيس الاغترابية تتناول الجوانب الإنسانيّة كلّها، فلا بدّ لاستيعاب ورصد الملامح الاغترابية لدى الشاعر من نظرة ثاقبة ودراسة فنيّة تحليليّة في أشعاره تستجلي بدقّة وإمعان الجوانب المتعدّدة لظاهرة الاغتراب على قدم وساق. والاعتراب في شعر سيد قطب باعتباره تجربة نفسية تنطلق من

أعماق نفسه وتنساق وراء عوامل مختلفة؛ يتبلور في الأنماط التالية هي: الاغتراب المكاني، والزمني، والروحي، والعاطفي، والسياسي، والاجتماعي.

٢. أسئلة البحث

هذه المقالة تحاول أن تُجيب على السؤالين التاليين:

- ١- كيف عبّر سيد قطب عن رؤاه تجاه نفسه والعالم من خلال الأشعار التي نظمها إبان شبابه؟
- ٢- ما هي المظاهر والملامح الاغترابية في شعر سيد قطب؟

٣. هدف البحث وضرورته

الهدف الذي يكمن وراء هذا البحث هو كشف القناع عن ميزة من مميزات أدب سيد قطب، ومما يُلحّ على ضرورة هذه الدراسة هو عدم اهتمام الباحثين والنقاد بشعره. والذي حال دون اهتمام الدارسين بشعر سيد قطب وأدبه هو شخصيته الفكرية والسياسية الهامة التي استقطبت دراساتهم وبحوثهم العلمية. ولما كانت شاعرية سيد قطب جديرة بالاعتناء والاهتمام، جاء هذا البحث ليُلقي الأضواء على جانب من جوانب شعره ويُعالجه، ألا وهو الملامح الاغترابية لدى الشاعر، كما تعكسها وتبلورها أشعاره.

٣. دراسات سابقة

مع أنّ سيد قطب من الأسماء اللامعة في العصر الحديث، ولكن دراسة شعره لم تحظ بكثير من العناية؛ فقد تركز انتباه الدارسين في استقصاء آثاره الأدبية والنقدية دون أن يدرسوها بعمق وإمعانٍ. فلذلك لم نعثر حسب اطلاعنا حتى الآن على دراسة تأخذ قضية الاغتراب ومظاهرها في شعر سيد قطب. هناك بعض المقالات عن شعره نذكرها على سبيل المثال لا الحصر: «أصداء شعر العقاد في شعر سيد قطب» للكاتب حسن أحمد عبدالحميد (مجلة كلية اللغة العربية، القاهرة، ١٩٦٦ق)؛ هذه المقالة رصدت بعض التشابهات بين شعر سيد قطب والعقاد. «خصائص التصوير الفني في شعر سيد قطب» للكاتبين كمال أحمد غنيم، وحنان أحمد غنيم (مجلة الجامعة الإسلامية، غزة، ٢٠٠٨م)؛ يتحدث فيها عن بعض الجماليات الفنية والبلاغية في شعر سيد قطب.

ومن الكتب التي تقف عند ظاهرة الاغتراب في الشعر العربي الحديث «الاغتراب في الشعر العراقي المعاصر» لمحمد راضي جعفر (١٩٩٩م)، والذي يهتم المؤلف فيه بدراسة أنماط الاغتراب في أعمال رواد الشعر العراقي الحرّ بينيتها اللغوية والتصويرية والإيقاعية. وأيضاً من المقالات التي تدرس هذه الظاهرة في الشعر العربي المعاصر، هي: «الغربة في الشعر العربي (الشاعر العراقي المهاجر نموذجاً)» (جعفر دلشاد وآخرون، ٢٠٠٨م)، والتي تؤكد على وجود جوانب في ظاهرة الاغتراب في الشعر العربي وهي المكاني والزمني والسياسي، إلا أن هذه الدراسة ركزت على الشعراء العراقيين المعاصرين ولم تتطرق إلى سائر البلدان العربيّة؛ ومقالة «موتيف الاغتراب في شعر يحيى السماوي» (رسول بلاوي والآخرون، ١٤٣٣ق)، إذ تهدف هذه الدراسة إلى الكشف عن موتيف الاغتراب وتوظيفه في شعر الشاعر العراقي السماوي وتبحث موزة، دلالاته وإجاءاته في شعره؛ ومقالة «تجليات الاغتراب في شعر صلاح عبدالصبور» (متقدم الجابري، ٢٠٠٥م)، والتي تدرس الشعور الاغترابي وأنماطه في شعر عبدالصبور. فعلى هذا الأساس لم يتطرق أحدٌ للدراسة عن ظاهرة الاغتراب وأنماطه في شعر سيد قطب. ومهما يكن من أمر فإن هذه المقالة تكاد تكون فريدة في نوعها، إذ أنّها تُعنى بمشاعر سيد قطب الاغترابية من خلال أشعاره، وتُلقي الأضواء على موضوع الاغتراب بوجوهه المختلفة لدى شاعرٍ، شعره لا يزال يشبه بلقياً صفتاً مترامية الأطراف غير واضحة المعالم.

٤. لمحة من حياة سيد قطب وشعره

وُلد سيد قطب إبراهيم الشاذلي، عام ١٩٠٦، في قرية "موشا" من محافظة أسيوط في مصر. تخرّج عام ١٩٣٣م في دارالعلوم حاملاً شهادة الليسانس في الآداب. التحق بحركة "الإخوان المسلمين" وخاض في معاركهم التي بدأت منذ عام ١٩٥٤م، بدءاً من اعتقاله في السنة نفسها، عندما اتّهم الإخوان بمحاولة اغتيال الرئيس المصري "جمال عبدالناصر". أُفرج عن سيد قطب في عام ١٩٦٤، و لكنه عاد إلى السجن مرة أخرى وحُكم عليه وعلى مجموعة من أعضاء الإخوان بالإعدام، ونُفذ فيه الحكم في فجر الإثنين عام ١٩٦٦ (أنظر: الخالدي، ١٩٩١: صص ٣٢٣-٤٨٢). نظم سيد قطب في فترة مبكرة من حياته بعضاً من القصائد والمقطوعات الشعرية وإن شعره «حقيقٌ بأن يوضع بين عيون الشعر العربي الحديث»

(كشميري، د.ت: ٢١٧)، ولكن لا يعرفه كثيرٌ من الناس إلا كمفكّر ومفسّر إسلامي، وذلك من خلال دراساته الإسلامية المتعدّدة، مثل «في ظلال القرآن»، «العدالة الاجتماعية في الإسلام»، «المعالم في الطريق» و.... وقد أهملت ثقافته الأدبية والنقدية من جانب الكثيرين وبذلك، تُرك أدبه ومدرسته النقدية في زاوية النسيان (سرباز، ١٤٣١ق: ٤٢).

أعجب سيد بداية مسيرته الأدبية بمدرسة "العقاد"، حيث وصف العقاد بأنه أفضل شاعرٍ وأقوى أديب في مصر (البدوي، ١٩٩٢: ٥٢)، و«يبدو أن أكثر ما اجتذب سيد قطب نحو مدرسة العقاد إنما هو ذلك السميل الواضح عن العقاد، والذي جراه فيه سيد قطب، الذي يحول الشاعر من محض مبدع إلى طليعة فكرية ورسول حقيقة ومصحح للأذواق والأخلاق، ومعبر عن فكرة» (يونس، ١٩٩٥: ٣٣) كما أعجب سيد قطب أيضاً بالشعراء الإيرانيين ولاسيما "حافظ الشيرازي"، ووصف غزلياته بأنها «تساعد على انخسار الموجة الفكرية عن الشعر الحديث»، وأن قارئها «يستروح فيها عطر الشرق البعيد وبساطته ومرحه» (قطب، ١٩٨٣: ٧١). كل أشعاره تجارب إنسانية عامّة يمرّ بها كلّ إنسان بصرف النظر عن لغته وثقافته ووطنه وقومه. يخلو شعر سيد قطب من المدح والفخر والهجاء، وكان بعيداً عن الغزل الحسي الفاحش الذي يصدر عن شهوات النفس الجاحمة وملذاتها، وقلّ في شعره الرثاء، «خوفاً من أن يندرج تحت اسم شعراء المناسبات.» (حسين، ١٩٩٣: ٣٩٧) الموضوعات التي عالجه سيد قطب في ديوانه هي:

- ١- التمرد
- ٢- الشكوى
- ٣- الحنين
- ٤- التأمل
- ٥- الغزل
- ٦- الوصف
- ٧- الرثاء
- ٨- الوطنيّات.

الشعر عند سيد قطب هو نعمة متناغمة مع الحياة ونعمة من أنعم الكون الفسيح وآية من آيات الجمال البارعة، فيقول في قصيدة «سعادة الشعراء» واصفاً حقيقة الشعر:

الشعْرُ مِنْ نِعَمِ الْحَيَاةِ عَرَفْتُهُ وَعَرَفْتُ فِيهِ الْبُؤْسَ ضَرْبَةً لَأَزِبِ
الشعْرُ ذَوْبٌ حُشَاشَةٌ مَسْفُوكَةٌ أَلَمًا وَوَجْدًا فِي حَنِينٍ ذَاهِبِ

(قطب، ٢٠١٢: ٥٣)

فالشعر عنده هو «الذي يخاطب العاطفة المبهمة أكثر مما يخاطب الفكر المحدود؛ العاطفة التي لا تعرف القيود ولا التحديد، ولكنها تنبئ في كلّ واد» (قطب، ١٩٩٦: ٦٤)؛ الشعر الذي «ينطلق صرخات عميقة قويّة، وأشجاناً وجدانيّة لطيفة، وسبحات علويّة شفيفة،

وفرحات رفاة طليقة» (قطب، ١٩٨٣: ٧٠). فمهمة الشعر عند سيد قطب «يجب أن تكون تعبيراً عن لحظات الإشراق والتهويم، ولحظات التوهج والانطلاق في النفس الإنسانيّة، تلك اللحظات التي يستحيل فيها الشاعر روحاً أكثر ما يكون تجرداً، أو حسّاً أشدّ ما يكون توهجاً» (المصدر نفسه: ٧٠).

٥. معنى الاغتراب وأسبابه

الاغتراب لغةً مشتق من (عَرَبٌ، يَعْرُبُ) ويعني غاب واختفى وتوارى وتمادى وتنحى وبُعد عن وطنه؛ أمّا (اغترَب، يَغْتَرِب) فتعني: أحسّ بالغربة ونزح عن وطنه؛ فالاغتراب مصدرٌ لفعل (اغترَب) أي انتاب الفرد شعوراً بالاغتراب برغم وجوده في بلده؛ وفقد الإنسان ذاته وشخصيته ممّا قد يدفعه إلى الثورة لكي يستعيد كيانه. أمّا الاغتراب اصطلاحاً هو ترجمة للكلمة الإنجليزية (alientation)، وإن اقترح بعض المترجمين تعابير أخرى كـ «الاغتيال» و«الاستلاب» و«الإلينة» للكلمة ذاتها. ولها أصل لاتيبيّ مستمدة من فعل (alienare) الذي يعني نقل ملكية شيء ما إلى آخر، وهذا الفعل هو «الاستلاب» و«الإلينة»، وهذا الفعل بدوره مستمد من (alienus) أي الانتماء إلى شخص آخر (العبد لله، ٢٠٠٥: ٢١).

فالاغتراب بوصفه مفهوماً حديثاً تناوله أول الأمر، الفيلسوف الألماني "هيجل" (Hegel) (ستوده، ١٣٨٢: ٢٣٩) إلى أن دخل معظم الدراسات الأدبية والنفسية والاجتماعية، فهو حالة من شعور الفرد بانفصاله عن واقعه وعجزه عن التكيف مع المجتمع الذي يعيش فيه، فهو حالة إخفاق الفرد في تحقيق التوازن بين الواقعية والإمكان، ومعنى آخر، هو «تعبير عن التوتر والقلق النفسي، وضياع الذات أو استشعار الخوف من فقدان الأمن والأمان، والفرح والسعادة، والتواصل مع الجوهر الطبيعي...» (جمعة، ٢٠١١: ٢٤)، و بذلك «يتداخل المعنى اللغوي والاصطلاحي ليعطي مفهوماً واحداً هو الابتعاد عن الناس بالجسم أو بالفكر» (الركابي، ١٤٣٠: ٨٥). فإذا إن ظاهرة الغربة «تستأصل الإنسان من كلّ ما يربطه بالحياة والحيز الإنساني، وتحرك في عوالمه الباطنية أنغام الحزن والشقاوة، ولكنها تتحول في الأعمال الشعريّة إلى زفرات الحزن، وصرخة في وجه الحياة الجائرة البائسة، وانتظار للفرج والخلاص» (دحماني، ٢٠٠٥-٢٠٠٦: ٥١)

- نظراً لتعدد معاني ودلالات الاغتراب، حاول الباحثون وضع بعض الدلالات لهذا المفهوم نستخلصها فيما يلي (راجع: الصافي، ٢٠٠٥: ٥):
- ١- العجز (Powerlessness): إن الفرد يشعر بأن مصيره ليست تحت سيطرته وإنما يتقرر بواسطة عوامل خارجية كالقدر، أو الحظ، أو نظام المؤسسات المتبعة في المجتمع الذي يعيش فيه ذلك الفرد.
 - ٢- فقدان العنيفة (Meaning lessness): هو إحساس الفرد بالضعف في الإدراك أو فقدان الهدف في الحياة، من مثل: عدم فهم شؤون العالم أو العلاقات الإنسانية المتداخلة أو إحساسه بعدم جدوى الغرض في هذه الحياة.
 - ٣- فقدان المعايير (Norm lessness): هو الشعور بالنقص في الإسهام في العوامل الاجتماعية المحددة للسلوك البشري، لذلك يحدث انحراف واسع وعدم الثقة والتنافر الفردي غير المحدد وما أشبه ذلك.
 - ٤- التنافر الثقافي (Cultural Estrangement): هو الإحساس بالانفصال عن القيم التي تحكم المجتمع والعادات والتقاليد الاجتماعية السائدة.
 - ٥- العزلة الاجتماعية (Social Isolation): وهي إحساس الفرد بالوحدة والشعور بالعزلة والانفصال عن العلاقات الاجتماعية.
 - ٦- الاغتراب الذاتي (Self Enstrangement): ويُعد من أصعب الأنواع السابقة وفيه يشعر الفرد بأنه خارج عن سيطرة نفسه أو أنه بعيد عن ذاته.
- فنتائج السلوكية التي يسفر عنها الاغتراب تتراوح بين: ١. الانسحاب أو العزلة. ٢. الخضوع أو الاستسلام. ٣- الثورة أو التمرد في سبيل تغيير الواقع (بركات، ٢٠٠٦: ٥٩).

٦. مظاهر الاغتراب في شعر سيد قطب

بعد أن استعرضنا أنواع الاغتراب يطيب بنا أن نذكر الاغتراب وأمطاه المختلفة في شعر سيد قطب بادئين بالغرابة المكانية:

٦-١. الغربة المكانية (الحنين إلى مرابع الطفولة)

هو ذلك الإحساس الذي يشعر به الإنسان في بعده عن وطنه ودياره التي غادرها؛ فالارتحال عن الوطن «يولد اغتراباً مكائياً لا تنفتح معه إلا أبواب الوحشة ولا يصبح العالم إلا ثقب

إبرة» (بلاوي والآخرون، ١٤٣٣: ٨١). أقام سيد قطب أقل من سنتين في أمريكا، وفيها أحسّ بالغربة العميقة فامتلاً شوقاً إلى مصر وأهلها وزاد حنينه للعودة إليها واحترق قلبه شوقاً لها. وقد نظم قصيدتين وهو في أمريكا، ضمّتهما شوقه وحنينه لمصر، وشعوره بالغربة هناك. ففي قصيدة «هتاف الروح»، وهو في «سانفرانسيسكو»، يحنّ إلى بلده مصر ورباه وثره وصباه متلهّفاً، ثمّ يتطرقّ إلى الليلي التي قضاها مع رفاقه، فيبدو الشاعر في هذه الأبيات وهو في حالة الغربة متعطّشاً لزيارة بلده وذكرياته الجميلة التي عاشها في مصر منطلقاً في وهادها وهضابها ومتقلّباً بين وديانها وجبالها؛ ثمّ يتمنّى الشاعر لو ضمّ حفنة من تراب بلده واستنشقها حتّى انتعش كيانه من ريحها وقضى ليلة واحدة في وطنه مع خلّانه منهمكاً في الملاهي والملاذ ومنغمرّاً في الحبّ والمرح على غرار أيّامه الماضية. والأمل الوحيد الذي يعيشه الشاعر بكلّ لهفة وظمأ هو أن يزور وطنه مرّة أخرى:

فِي النَّفْسِ يَا مِصْرُ شَوْقٌ لِخَطَرَةٍ فِي رُبَاكَ
لِضَمَّةٍ مِنْ ثَرَاكَ لِنَفْحَةٍ مِنْ هَوَاكَ
لِلَّيْلَةِ فِيكَ أُخْرَى مَعَ الرَّفَاقِ هُنَاكَ
ظَمَأَنْ تَهْتَفُ رُوحِي مَتَى تَرَانِي أَرَاكَ؟
(قطب، ٢٠١٢: ٣٦٠)

وأما في قصيدة «دعاء الغريب»، فكلّ كلمة فيها تدلّ على مدى شعور سيد قطب الاغترابي في أمريكا، وعلى دعائه المستمرّ للخلاص من هذه الغربة، وعلى تفانيه في حبّ مسقط رأسه مصر؛ فينادي شواطئ بلده التي صارت بعيدة عن الفتى العاشق الذي يحنّ إليها حين الإبل إلى مأواه. لقد أمضى الشاعر برهة في الغربة فاشتدّ به شعور الاغتراب وألم الغربة حتّى طفح كيله وضاق صدره، فحاول التنفيس عن أحزانه وهوومه بأسلوب الاستفهام الذي يعكس آمال الشاعر وأمانيه في زيارته للوطن الحبيب، فيسأل الكون معبراً عن اشتياقه إلى أرض الوطن الحبيبة: متى تنتهي أيام الغربة؟ ومتى تلمس قدماه تراب أرضه الطيب؟ ومتى يستشّم رائحته التي تحكي شذا أريج الأقحوان؟:

يَا نَائِيَاتِ الصَّفَافِ هُنَا فَتَاكِ الْحَيِّبِ
عَلَيْهِ طَالَ الْمَطَافِ مَتَى يَعُودُ الْغَرِيبِ؟
مَتَى تُجِسُّ خُطَاةَ ذَاكَ الْأَدِيمِ الْمُعْبَرِ؟

مَتَى يَشْتُمُّ شَذَاهُ كَالْأَفْحُوَانِ الْمُعْطَرِّ؟

(المصدر نفسه: ٣٦١)

وفي ختام القصيدة يتمنى الشاعر لو أستعيدت إليه أرض مصر، إذ يعيش هو في حالة من الغربة والوحدة وصار كل حبه وهواه وقفاً على بلده ووطنه البعيد عنه:

يَا أَرْضُ رُدِّي إِلَيْكَ هَذَا الْوَجِيدَ الْغَرِيبُ!!
هَوَاهُ وَقَفُّ عَلَيْكَ رُدِّي فَتَاكَ الْحَيْبُ!!

(المصدر نفسه: ٣٦٢)

فكلما استرجع الشاعر ذكرياته تبدت في مخيلته صورة الريف الذي قضى فيه أيام طفولته، بمنظره الجميلة ومشاهده الأخاذة، فامتزج في ذهن الشاعر منظر الريف مع أحلامه وأوهامه امتزاجاً حقيقياً، وكوّن لديه الشعور بالأنس والقرباة إلى حد جعل الشاعر ينادي أرض وطنه التي تختزن أحلامه وذكرياته، وكأنها ماثلة أمامه، ثم يحييها تحية زائر يزور حبيبته بعد فترة طويلة من الابتعاد عنه؛ وحينئذ يعبر الشاعر عن شعوره بالخلود الذي يساور كيانه، إذ زيارة الوطن هي الأمل الوحيد الذي ملأ كيانه؛ وكانت النعمة الوحيدة التي تعزفها قيثارة نفسه هي نعمة الحب والحنين إلى الوطن:

مَهْدَ الرَّجَاءِ وَمَهْبَطَ الْأَحْلَامِ
يَا رِيفُ فَيْكَ مِنَ الْخُلُودِ أَثَارَةٌ
وَتَرْدُ إِحْسَاسِي إِلَيْكَ إِذَا خَلْتُ
وَطَنِي عَلَيْكَ تَحِيَّتِي وَسَلَامِي
تَنْسَابُ فِي خَلْدِي وَفِي أَوْهَامِي
نَفْسِي إِلَى الْأَمَالِ وَالْأَلَامِ

(المصدر نفسه: ٨٤)

٦-٢. الغربة الزمانية

«يشعر المرء في هذا النوع من الاغتراب بأن الزمان تغيرت ملامحه عليه ولم يعد يعيش في الزمان المثالي الذي ألفه واعتاد عليه. ذلك لأن كثيراً من الأعراف والتقاليد قد تغيرت وطواها النسيان؛ فلما كان العهد السابق حافلاً بالخيرات بحسب وجهة نظره، يتذكر ذلك الماضي بشيء من الحسرة والألم» (دلشاد والآخرون، ٢٠٠٨: ٧٠). فالتحسس على الماضي نجده في شعر سيد قطب الذي يحمل في طياته التوق إلى أيام الطفولة، إذ يراه حافلاً بأنواع الخير والبركة:

تَرَاءَى لِنَفْسِي عَهْدُ الصَّغَرِ
لِعَهْدِ الرِّضَاءِ وَ عَهْدِ الْخُبُورِ
فَتَشْتَاقُ نَفْسِي لِعَهْدِ الصَّغَرِ
وَعَهْدِ الصَّفَاءِ الْقَلِيلِ الْكَدَرِ

أَنَامُ وَأَصْحُو عَلَى مَا أَشَا ءُ طَرُوبَ الْفُؤَادِ قَرِيرَ النَّظَرِ
(قطب، ١٩٩٢: ٧٣)

إنَّ الشاعرَ يتذكَّرُ في الأبيات السابقة طفولته الحالمة ويدعو لها، لما تحتضن هذه الطفولة من وداعة وأحلام ولكونها بعيدةً عن مشاكل الحياة الشاقَّة والمصائب التي تتزل بالإنسان فيما بعد:

رَعَى اللهُ عَهْدًا جَمِيلًا تَوَلَّى وَخَلَّفَنِي لِأَسَى ثُمَّ مَرَّ
وَأَسْلَمَنِي لِصَعَابِ الْأُمُورِ وَكَيْدِ الصُّرُوفِ وَطُولِ السَّهْرِ
(المصدر نفسه: ٧٣)

شكا الشاعر من زمانه الذي أراه المكارهَ ورماه بأنواع المصائب والمشاكل؛ حتَّى تضجَّر الشاعر من هذا الزمان وتبرِّم به وليس سيد قطب الشاعر الوحيد الذي صبَّ كؤوس غضبه على الدهر، بل نجد المعزى نفسه لدى الأغلبية الساحقة من الأدباء. يُذكر أنَّ سيد قطب يقصد بالزمن نوائب الدهر وصروفه التي أذاقته المِحن وأحلت به المصائب، فيرى من حقِّه أن يُوجِّه إليه أصابع الاتِّهام وأهوى عليه بسهام سبه وشتمه، ويعتبره أعدى عدوه الذي يريد شقائه والإيقاع به، فهذا العدو اللدود لا يرغبُ أبدًا بالمسالمة بل وإتِّما يتمادى في العداة والخصام. فالمصائب التي تكبدها الشاعر من الزمن جعلته يرثي نفسه التي أصبحت عرضة لدواهي الدهر المفجعة:

مَا لِلزَّمَانِ الْمُسْتَبِدِّ وَمَا لِيهِ حَتَّامٌ يَبْفِي فِي الْحَيَاةِ شَقَايَةَ
حَتَّامٌ يَرْمِينِي بِكُلِّ رَزِينَةٍ رَبَّاهُ إِنِّي قَدْ كَرِهْتُ حَيَاتِيَهُ
أَسْلَمْتُهُ أَمْرِي وَرَحْتُ مُسَالِمًا وَأَرَاهُ لَمْ يَهْمُمْ بِغَيْرِ عَدَائِيَهُ
يَا وَيْحَ نَفْسِي مِنْ زَمَانِي وَيْحَهَا كَمْ قَدْ رَمَاهَا فِي الْحَيَاةِ بَدَاهِيَهُ
(المصدر نفسه: ٧٣)

٣-٦. الغربة العاطفية

سيد قطب لم يتزوَّج ولكن عدم تزوجه لا يدلُّ على عدم وقوعه في الحب؛ لأنَّ الحبَّ في رأيه هو شريعة الحياة، وأساس كلِّ شيء في العالم. فهذا هو سيد قطب كواحدٍ من الشعراء الشباب يتحدَّث عن معنى الحبِّ لديه فيقول: «نفسه محبة... تعشق الرضا والهدوء وتلمسها في كلِّ ناحية وفي كلِّ مظهر من مظاهر الحياة وتودُّ لو كانت الحياة منبسطة

هادئة لا عوج فيها ولا نتوء» (نقلاً من: حسين، ١٩٩٣: ١٧٦) إنَّ الشاعر أحبَّ حبًّا صادقاً مرتين؛ مرة عندما كان في قريته وقبل أن يغادرها إلى القاهرة، فهناك أُعجب بفتاة ووقعت محبَّتها في قلبه؛ إذ يصفها بأنَّها «تبدو في نظره جميلة، وكان سرَّ جمالها عنده، أنَّها ذاتُ طابع خاص! وإن لم يدرك في ذلك الحين معنى الطابع الخاص» (قطب، د.ت: ٥٥). ترك سيد قطب قريته إلى القاهرة للدراسة ولكن حبَّ الفتاة بقي في مخيلته ولم يفارقها، حتَّى إذا عاد إلى القرية سائلاً عن مصيرها عبر هذه السنوات التي مرَّت، لكنَّها علم أنَّها تزوجت!! ففي ذلك الحين «رأى نفسه في حاجة لأن ينسحب من الجمع، ورأى عينيه تترقرقان بالدموع!» (المصدر نفسه: ٧٤).

بعد تخرُّج سيد قطب من الكلية، يبدأ حبَّه الثاني ملامحها تكاد تشبه بنت قريته - عشيقته الأولى -؛ فهي «في وجهها حاذيَّة ساحرة، كانت خمريَّة اللون، واضحة الجبين، وفي عينها وهج غريب، تطلَّ منه إشراقه مسحورة» (قطب، الأشواك، ٧٤). يريد الشاعر أن يتزوَّجها فيتقدَّم لخطبتها من أهلها، ولكن تغيَّرت آماله وتلاشت كل أحلامه؛ عندما علمت أنَّ الفتاة تعيش قصَّة حبٍّ مع ابن جيرانها الضابط في الجيش. وبعد معرفته هذه الحقيقية القاسية والمؤلمة، عاش فترةً من حياة العذاب والحيرة والحُرمات» (المصدر نفسه: ٧٠). مع ذلك، لا يقدر سيد قطب أن ينساها، لأنَّ محبَّتها نُقشت في قرارة نفسه، وعانقت نياط قلبه؛ هذه الخيبة العاطفيَّة في حياة الشاعر تنعكس في شعره بوضوح، ففي قصيدة «بعد الأوان» يُبدي معاناته وعذابه بعد فراقه عن محبوبته التي أحسَّ بالغربة والوحدة بعدها؛ فالغربة العاطفيَّة التي يعيشها الشاعر واضحة في القصيدة كلِّ الوضوح، كما نسمع زفرات الشاعر الذي يشكو من صدمة رويَّة تنتابه إثر فراق الحبيبة. بعثت هذه الغربة في نفسه حالة من الحزن والكآبة إلى درجة يشعر بأنَّ آماله قد خابت برمتها، وأنَّ التمنيَّ في الحبِّ ليس سوى خدعة وغرور. ولا يخفى أنَّ في دعوة الشاعر حبيبته إلى المهجر تعبيراً صادقاً عما يجيش في ضميره من الإحساس بالخيبة العاطفيَّة في الحبِّ:

ذَهَبَ الزَّمَانُ هُنَاكَ، فَأَمْضِي أَنْتِ عَنِّي

مَا عَادَ يُوقِظُنِي نِدَاؤُكَ خِلْسَةً مِنْ بَعْدِ وَهْنِ

مَاتَتْ مُنَايَ جَمِيعُهَا، فَعَلَّامَ يَخْدَعُنِي التَّمَنِّي؟

فَرَقَ الزَّمَانُ طَرِيفَنَا، فَاَمْضِي وَحَسْبُكَ ذَاكَ مِنِّي!

(قطب، ٢٠١٢: ٣٥٥)

وفي قصيدة أخرى يصف الشاعر فراق حبيبته وبعدها عنه بعد أن تعلل الشاعر من جناها مدّة، وأخذ يبتّ نَفثاته عن الحُبِّ وأهواله؛ ومّا ينفطر له قلب الشاعر حزناً أنّ الحبيبة ليست على طورٍ ثابتٍ ولا يستقرّ على حالةٍ واحدةٍ، بل هي تُري المحبَّ في كلّ لحظةٍ حالةً جديدةً؛ فهي تكون هادئةً ليّنةً تارةً، وفظةً غليظةً تارةً أخرى؛ كما أنّها ترغب في الوصالَ زمنًا وتُبادر إلى القطيعةَ زمنًا آخر. والمحبُّ المسكين يتحمّل في كلّ هذه الأطوار الغريبة الصادرة من الحُبِّ أعباءً ثقيلةً لا تطاق:

إِذْ تَرَأَيْتَ هَالَةً مِنْ رَجَاءٍ هَادِيٍّ لَيْنٍ رَفِيقٍ وَيَدِ
ثُمَّ ذَائِبَةٍ فِي دَلَالٍ وَدَبْعٍ ثُمَّ بَاعَدَتِ فِي دَلَالٍ شُرُودِ

(المصدر نفسه: ١٠٧)

ربّما يكون الاغتراب الشعوري الذي يُراود الشاعر أكثرَ جلاءً ووضوحاً في الأبيات التالية؛ حيث تجري على لسانه كلماتٌ ملؤها الآهات والزفرات، إذ إنّ لا يجد من الحبيبة سوى الفراق، بعد أن كان يرجو منها الوصال؛ هذا التصرف القاسي الذي تُبديه الحبيبة يملأ قلب الشاعر حزناً وكمدًا ويجعله في حيرة من أمره. وقد بلغ الشعور الاغترابي لدى الشاعر درجةً تَمَنَّى فيها الموت وأصبحت الحياة في نظره ليلةً مظلمةً قائمةً لم ير فيها بصيصاً من نور الأمل؛ وهذا الظلام الذي خيم على حياة الشاعر هو ناجمٌ من نفسه الكئيبة التي تراحمت فيها الأحزان والأشجان:

فَطَعَتْ رَجَائِي فِي اللَّقَاءِ وَلَمْ أَكُنْ أُرَجِّي مِنَ الدُّنْيَا سِوَى عَاجِلِ القُرْبِ
فَرُحْتُ وَقَلْبِي لَا يُفَارِقُهُ الأَسَى وَقَد حَرْتُ فِي أَمْرِي وَلَمْ يُجِدْنِي لُبِّي
حَيَاتِي ظَلَامٌ لَسْتُ أَرْجُو صَبَاحَهُ فَيَا لَيْتَنِي أَفْضِي عَلَى عَجَلٍ نَجْبِي

(المصدر نفسه: ١٨٥)

فقد سيد قطب أمّه في عام ١٩٤٠ وكان لهذا الحادث أثره المؤلم في نفس الشاعر؛ حيث إنّها كانت في حياته وفي حياة الأسرة كلّها ركيزةً أساسيةً؛ الأمر الذي جعل الشاعر يتمنّى عودتها، لكي يستمدّ منها الزاد في صراع الحياة ويرى في جبينها الوضاء إشراقاً الرجاء وبأجج بزيتها أنوار وجوده، فهو الآن بأمسّ الحاجة إليها حيث زاده يكاد ينتهي

وناره تحمد عما قريب. يرى سيد قطب الأمّ رؤيةً مشحونة بالرقّة والعدوبة الرومانسيّة، فالأمّ وحدها تُعطي ولدها نوراً يهتدي به في طُرُق الحياة الشائكة والوعرة؛ فيقول في قصيدة «الزاد الأخير» التي أنشدتها ١٩٤١م، أي بعد وفاة أمّه بعامٍ واحدٍ:

زُوْدِيْنِي مِنْ الرَّجَاءِ الْأَصِيْلِ	مُشْرِقاً فِيكَ فِي الْمَحَبِّ الْجَمِيْلِ
زُوْدِيْنِي لَكَادَ يَنْقُذُ زَادِي	فِي صِرَاعٍ مَعَ الْحَيَاةِ طَوِيْلِ
كَادَ يَخْبُو الْمَصِيْحُ إِلَّا بَصِيْحاً	فَأَسْكُبِي الرِّبَّ فِي طَرِيْقِ الْأَفْوَلِ
كُنْتُ كَالْجَذْوَةِ الْمُشْعَّةِ نُوراً	وَهِيَ الْيَوْمَ فِي طَرِيْقِ الْأَفْوَلِ
أَنْتِ لَا غَيْرِي الْقَدِيْرَةَ أَنْ تُدْ	كِي حَيَاةً بِخَاطِرِي وَمِيْـوَلِي

(المصدر نفسه: ١٣٤)

٤-٦. الغربة الروحيّة

المقصود بالغربة الروحيّة هو أن يشعر الإنسان بأنّه غريب في هذا الكون وأنّ هذه الحياة التي يحياها ليست هي حياة الروح السخالدة ولا هذه الدنيا باقية؛ فالإنسان يعيش فيه وكأنّه غريب. لقد أكثر شعراء هذه الغربة من الحديث عن حقارة الدنيا وهوان شأنها، كما أنّ سيد قطب يعبر عن الدنيا بالألعوبة التي تُلهي الأطفال بنفسها؛ فالأطفال في رؤيته هم الذين لم تنضج عقولهم ولم تكتمل شخصياتهم، فلذلك ينخدعون بظواهر الدنيا وزخارفها، لأنّهم نسوا الغاية التي خلّقوا من أجلها، ولكن أصحاب العقول الراشدة لا يسعون وراء الدنيا وملذاتها الفانية. جاء في الأبيات التالية من سيد قطب:

إِيْهِ يَا دُنْيَا وَمَا أَنْتِ سِوَى	عَبَثِ الْأَطْفَالِ فِيْمَا يَلْعَبُوْنَ
ضَحِيَّةٌ صَاحِبَةٌ لَأَ تَحْتَوِي	غَيْرَ أَصْدَاءٍ قَوِيَّاتِ الرِّبَنِ
فَإِذَا فَتَشْتِ عَنْ مَبْعَثِهَا	لَمْ تَجِدْ شَيْئاً تُحْيِيهِ الْوُكُوْنَ!

(قطب، ٢٠١٢: ١٠٤)

مرّت في حياة سيد قطب مرحلةٌ تُسمّى برحلة ضياعه الفكري، و«هي تلك المرحلة التي وقع فيها صراعٌ بين التصوّرات الإسلاميّة التي تلقّاها من طفولته من جهة، والتصوّرات الماديّة الغربيّة التي تلقّاها في شبابه، وكلّ منها تدعوه ليعتنقها ويدين بها؛ فوقف بين الدعوتين حائراً قلقاً متردداً» (الخالدي، ١٩٩١: ٢١٣) في هذه المرحلة لا يجد الشاعر ما يشفي به غليله الروحي وما يتجاوب مع ما يجول في ذهنه من أمنيات وآمال، فأدّى به الأمر

إلى أن يُحسَّ بالغربة الروحية العميقة التي نراها جلياً في معظم قصائده؛ حتّى إن ديوانه الأول «الشاطئ المجهول»، يمثّل قَمّة التيه والضياع الذي يظهر واضحاً في كلمات سيّد وتعبيراته (ابن محمود، ١٤٢٩: ١١). ففي قصيدة «غريب...!» يعبر الشاعر فيها عن غربته الروحية في أجمل تعبير؛ آخذاً بنظر الاعتبار أنّ غربة الشاعر ليست غربةً عاديةً يعيشها أيُّ إنسان غريب يسكن خارج وطنه بعيداً عن أحبابه وأقاربه؛ إذ أنّ سيد قطب كما يصرّح به في الأبيات التالية يُقيم وسط أصحابه وأقرانه ويتمتع برعايتهم وعطفهم وحنانهم، وبالتالي يكون هذا الاغتراب الذي بداخله ناجماً عن شعوره بالوحدة والانفراد في عالم الكون، فهو غربة صوفيّة إن جاز التعبير:

وَإِنْ حَفَّ بِبَيْ الصَّحْبِ وَالْأَقْرُبُونَ	غَرِيبٌ أَجَلٌ أَنَا فِي غُرْبَةٍ
عَلَيْهِ حَنَائِيَا فُرَادِي الْحَنُونَ	غَرِيبٌ بِنَفْسِي وَمَا تَنْطَبُؤِي
بِغَضِ الْقُلُوبِ لِقَلْبِي حَيْنِ	غَرِيبٌ وَإِنْ كَانَ لَمَّا يَزَلُ
وَوَا لَهْفَ نَفْسِي لِلْمُخْلِصِينَ	غَرِيبٌ فَوَا حَاجَتِي لِلْمُعِينِ

(قطب، ٢٠١٢: ٦٥)

يؤكد سيد قطب على هذه الغربة الروحية ويعتبرها أشدّ وأقوى من الغربة الجسميّة؛ إنّه يتخيّل نفسه منفرداً في وادٍ غريب لا صديق فيه ولا أنيس وهو محاطٌ بالأحزان والأشجان. تحدّث سيد قطب في أبياته التالية عن وحدة الأرواح على غرار الأدباء الصوفيين، فهو خفّف عن مكانة الجسم واستهتر به، إذ إنّ الأجساد سرعان ما تتلاشى وتزول، بيد أنّ الروح تبقى باقيةً خالدةً. تعكس الأشعار التالية انزواء سيد قطب عن غوغاء الحياة وضوضاء المجتمع انزواءً روحياً يحكي عن الغربة النفسيّة لدى الشاعر:

وَخَدَّةُ الْأَجْسَامِ تُنْسَى وَتَهْوُونَ	وَخَدَّةُ الْأَرْوَاحِ أَنْكِي الْوَحَدَاتِ
كَانْفَرَادِ الرُّوحِ فِي وَادِي الشُّجُونِ	أَيُّ بُؤْسِي تَسْتَجِثُ الذُّكْرِيَاتِ
وَأَنْزَوْتُ فِي عَالَمِ جَمِّ السُّكُونِ	إِنَّ رُوحِي قَدْ تَنَاسَتْ «خُدَّ وَهَاتِ»

(قطب، ١٩٩٢: ٣٩)

يكرّر سيد قطب في لقطةٍ أخرى من أشعاره قصّة غربته الروحيّة، فإنّه في الأبيات التالية يتساءل من نفسه الغريبة طالباً منها الكشف عن حقيقة العالم التي يعترف الشاعر بأنّه لم يعرفها، فكأنّه عاش في عالمٍ لا يعرفه الشاعر، كما أنّ العالم لا يعرف الشاعر أيضاً؛ ثمّ يتفوّه سيد قطب بكلماتٍ تعكس نظرتَه السلبية تجاه العالم وهي أنّه لم يجن من هذه الدنيا ولم يربح

فيها سوى الظلم والبؤس؛ والمعنى الذي نستنبطه من الشعر التالي هو أن سيد قطب آنسُ بحقيقة روحه منه إلى العالم الحسِّي:

حَدَّثَنِي أَنْتِ يَا نَفْسِي فَمَا أَفْهَمُ الْعَالَمَ أَوْ يَفْهَمُنِي
إِنِّي أُنْكِرُهُ الْيَوْمَ كَمَا أَنَّهُ بِالْأَمْسِ قَدْ أَنْكَرَنِي
لَمْ أَجِدْ فِي الْكَوْنِ إِلَّا أَلْمًا إِنَّمَا الْوَحْدَةُ أَصْلُ الشَّجَنِ

(المصدر نفسه: ٣٩)

فالشعور الذي يتولّد من حالة الغربة الروحيّة هي الخوف والهلع من الوقوع في التيه والضلال في هذا العالم الرحيب؛ كما أنّ سيد قطب يتخيّل نفسه رباناً تتهاذى سفينته في بحر هائج تتلاعب بها أمواجه المتلاطمة والمضطربة، فلا يكاد يرى أمامه شاطئاً مطمئناً آمناً يلوذ به:

فَكَأَنِّي الْمَلَّاحُ تَاءَ سَفِينُهُ وَيَخَافُ مِنْ شَطِّ مُرِيبٍ أَجْرَدِ!

(المصدر نفسه: ٦٢)

٥-٦. الغربة الاجتماعية

هذا الاغتراب يُورث غالباً ما الشعور بالانفصال وعدم التعلّق بالمجتمع، ويعقبه في كثير من الأحيان حالة من عدم إدراك القيم والتقاليد السائدة على المجتمع. زد على ذلك أنّ هذا اللون من الاغتراب يعمل على إثارة الشعور بالوحدة والانعزال عن الآخرين ممّا يؤدي أحياناً إلى إنكار القيم ورفض المُثُل التي يحترمها ويحتفي بها أبناء المجتمع بكلّ حماس وحميّة؛ إنّ الغربة الاجتماعية قد تؤدي إلى عدم التفاعل الفكري والعاطفي لدى الشاعر، شأن العديد من المثقّفين المُنعزلين عن مجتمعاتهم. فكان سيد قطب ممن يوجد لديه الشعور بهذا الاغتراب، فجعله لا يحسّ بالقرابة مع المجتمع والتعاطف معه. ويُذكر أنّ رومانية سيد قطب زادت على حدّة هذا الشعور وقوّته، حيث إنّ «الصلة بين الرومانسيين وعصرهم صلة صراع وجهاد، أو صلة سخط وغضب. وهي صلة الشعور القوي النائر المتطرّف الذي يصبو إلى الأمثليّة بكلّ حماسٍ وحرارة، وهذه الأمثليّة قد تنعكس صورتها في الأدب على أنّها صورة لما ينبغي أن يكون، لا لما هو كائن؛ فهذه الصورة في تعارضٍ مع ما عليه المجتمع الذي نشأت فيه» (هلال، د.ت: ٤٠) يتحدّث سيد قطب عن الذين يشاهدهم حوله؛ بأنهم لا يُدركون ولا يفهمون معنى الوجود فهم كالحشرات التي شوّهوا الكون الجميل:

أُنَاسِيًّا أَرَى أَمْ حَشَرَاتٍ شَوَّهَتْ مِنْ طَلْعَةِ الْكَوْنِ الْجَمِيلِ؟
يُشِيهُونَ النَّاسَ فِي تِلْكَ السَّمَاتِ بَيْنَمَا أَنْفُسُهُمْ رِجْسٌ يَسِيلُ!
(قطب، ٢٠١٢: ٤٢)

تطرق الشاعر سيد قطب إلى حالة الغربة الاجتماعية مندداً بالتقاليد والعادات التي قد تطغى على المعتقدات الدينية لدى الناس؛ فقد شبه الملتزمين بالتقاليد الخرافية بعباد الأصنام الذين يتخذون قطعة من الرخام ثم ينحتونه ويعطونه شكلاً وصورة حسبما شاءت أهواءهم وميولهم، ومن ثم يعبدونه كعبادتهم الله؛ لا ريب أن هذه الأفكار والأوهام تنم عن تمكّن الجاهل والسفاهة من نفوسهم؛ إن الجاهل وفقدان روح الحياة يسببان احتجاجهم وثورتهم على كل ناصح أمين يريد إنقاذهم من ورطة الكفر والجهالة. وهذه الأبيات تُخبرنا أيضاً أن الشاعر ينفر من الوسط الذي يكتظّ بأناسٍ فقدوا العواطف الإنسانية وروح الحياة فأصبحوا كحثة هادمة لا روح لها ولا حياة:

وَتَقَالِيدٌ وَأَسْرَى يَعْبُدُونَ هَذِهِ الْأَصْنَامَ مُغْلُولِي الْفِكْرِ
وَإِذَا ثُرْتُ عَلَيْهَا يَسْخَطُونَ وَيَقُولُونَ تَمَادَى وَكَفَرُ!
وَيَحْتَمُّ مَاذَا تَرَاهُمْ يَبْتَغُونَ؟ أَتَرَى نَحْيًا شَخُوصًا مِنْ حَجَرٍ؟!
(المصدر نفسه: ٤٠)

كثيراً ما نمرّ بالأبيات التي تعكس أمل سيد قطب للعثور على صديقٍ يتحلّى بخالص الإحساس ورقة القلب وفيضان الشعور، ويبدو من صبغة الحزن واليأس التي أضفاها الشاعر على كلماته أنه يستبعد إيجاد صديق يتصف بتلك السجايا كلّ الاستبعاد! فهو يقول:

ابْحَثُوا لِي مَا اسْتَطَعْتُمْ عَنْ صَدِيقٍ فَلَقَدْ أَعْيَانِي الْبَحْثُ الْكَثِيرُ!
مُخْلِصِ الطَّمَعِ لَهُ قَلْبٌ رَقِيقٌ خَالِصِ الْإِحْسَاسِ قِيَاضِ الشُّعُورِ!
(المصدر نفسه: ٥٦)

من الملاحظ أن سيد قطب يرى أن معظم الناس يفقدون الصلاحية للصدقة والإخاء، لأنهم يعيشون كالبهائم التي همها علفها، فلا يهتمهم من الحياة سوى المعاش، مثلهم مثل الكهف الذي أصبح رمزاً للخراب والدمار، فكما لا يُرجى من الكهف العمران، لا يُرجى منهم حسن الصداقة والتحاب:

فَهُمُوا الْعَيْشَ طَعَامًا وَشَرَابًا وَرَوَاحًا حَيْثُ شَاءُوا وَعُدُورًا
أَنْفُسُ كَالْكَهْفِ مَا زَالَتْ خَرَابًا مِنْ شُعُورٍ يُلْهِمُ النَّفْسَ السُّمُورًا
(المصدر نفسه: ٢٣)

٦-٦. الغربة السياسية

الشعور بالاغتراب السياسي لدى سيد قطب متجذّر في وعيه الفكري السياسي الذي لا يستطيع أن يتحمّل أيّ نوع من الظلم والجور، ولكن أتى تلفت وجد القهر والاستغلال، ووجد أنه لا همّ لأبناء وطنه إلا السمتعة واللذة؛ تمثل هذا النمط من الاغتراب في ثورة سيد قطب على المستبدين والجائرين من طبقة الحكّام ومن الشباب الذين يرضون كلّ ذلّ وهوان ولا يرفعون صوتهم عالياً لإحقاق حقوقهم الشرعيّة والإنسانيّة. فمثلاً في إحدى قصائده الوطنيّة يندّد بالظلم والقمع الذي يُمارس بحقّ الأبرياء، إلّا أنّ الشاعر بدل أن يخاطب الساسة والحكّام الظالمين يتوجّه إلى الشباب لأنّهم لو رفضوا الظلم لرُفِعَ الظلم عنهم. ثمّ يشير سيد قطب في أبياته التالية إلى نماذج من الظلم والقمع الذي يذوقه الشعب يومياً، ففي مصر صار الإنسان أقلّ كرامة وشأناً من الكلاب، فبينما تتمتع الكلاب بعيشة ناعمة مرفهة يُحرّم الشعب من أتفه أسباب العيش، وفي حال يحظى الجناة والمجرمون بأكثر حرّية يُسلب الأناص الطيبون حقوقهم وكرامتهم، كما أنّ التاريخ في مصر أصبح ملوّثاً بالسباب والشتائم والتعابير البذيئة، فلو وُجد في مصر قدرٌ ضئيلٌ من الكرامة فإنّه حصيلة دماء كثيرة أريقت على أرضها:

يَا أَيُّهَا الرُّفَقَاءُ بِالْحَيَوَانِ لَا تَنْسُوا أَنْاسِيًّا تَمِينٌ وَتَأْلَمٌ
فِي مِصْرَ قَدْ تَلَقَى الْكِلَابُ رِعَايَةً بَيْنَا يُحَقَّرُ شَعْبُهَا وَيُحَطَّمُ!
فِي مِصْرَ لَا يَلْقَى الْمُسِيءُ جَزَاءَهُ لَا بَلَّ يُكَافَأُ ذُونُهُ وَيُكْرَمُ
فِي مِصْرَ مَا لَا يَحْفَظُ التَّارِيخُ مِنْ فُحْشٍ يَعِجُّ بِهَا وَفُحْشٍ يُكْتَمُ
فِي مِصْرَ! لَوْ فِي مِصْرَ بَعْضُ كَرَامَةٍ غَضِبَتْ وَقَارَ عَلَى جَوَانِبِهَا الدَّمُ!
(المصدر نفسه: ٢٨٢)

ثمّ يلتفت الشاعر إلى مصر (وهو يقصد أبنائها) سائلاً إيّاها: ألم يأن لها أن تتورّ بعد كلّ هذه المصائب التي مرّت بها؛ حيث انقلبت الأمور واضطربت الأحوال واكفهرت آفاق البلاد كلّها، فالنيل الأزرق غضبٌ وملّ هذا الصمت المميت، لكنّ مصر ظلّت غارقة في

لهوها ومرحها ناسيةً ما حلَّ بها من المصائب. وعندما صاحت واستيقظت من نومها أخذت تبكي وتُعوّل على حالها المأساوي مكفوفة اليدين، ويتمنى الشاعر لو تُرجم هذا البكاء والعويل إلى إقدام وشجاعة وانتفاضة؛ لأنّ البكاء والعويل لا يجديان ولا طائل تحتهما، فمصر إما أن تنور وتُحطّم القيود وتفوز بالحرية وكرامة العيش وإما أن تظلّ مقيدة بالقيود مسلوّبة الإرادة صاغرة:

صَحَّتِ الدُّنْيَا فَمَاذَا تَرْتَقِبُ	مِصْرُ مِنْ أَهْوَالِهَا حَتَّى تَتَيْبُ؟
صَحَّتِ الدُّنْيَا مِنَ الْهَوْلِ الَّذِي	تَرَكَ الدُّنْيَا جَمِيعاً تَضْطَرِبُ
فَارَ مَاءَ التَّيْلِ أَوْ صَارَ إِلَى	حُمَمٍ أَوْ نَقْمَةٍ مِنْهُ تُصَبُّ
وَأَرَى مِصْرَ تُعَانِي سَكْرَةً	وَإِذَا تَصْحُو تَوَلَّتْ تَنْتَجِبُ؟
مِصْرُ يَا مِصْرُ وَمَا يُجْدِي الْبُكَاءُ	غَضَبُ يَا مِصْرُ كَاللَّيْثِ وَتَبُّ
غَضَبُ يَا مِصْرُ أَوْ لَأ فَادْرَجِي	فِي قُيُودِ الذُّلِّ وَارْضِي بِالْحَرْبِ

(المصدر نفسه: ٢٨٣)

٧. توظيف أسلوب «التكرار» في ألفاظٍ تسم عن الاغتراب في شعر سيد قطب
لما شوهد أن سيد قطب وظّف أسلوب التكرار في كثير من الأحيان للتعبير عن مظاهر اغترابه، فمن الأنسب والأجدر أن تُذكر في هذا المقال لقطاتٌ من شعره الذي استخدم الشاعر فيه التكرار كآلية من آليات التعبير. وقد استثمر سيد قطب هذا النمط البياني ليتغنى بمشاعره الاغترابية، ففي قصيدة (زفراءٌ جامحةٌ مكبوحه) مثلاً، يكرّر الشاعر جملة (أذهب) أربع مرّات، تعبيراً منه عن حالة اغترابه المريرة؛ يطلب الشاعر هنا من صديقه أن يدعه وآلامه التي تُذيب حشاشته وقلبه الذي يستترف دماً. فوقع الشاعر هناك في غربة نفسية، كان سببها فقدان من يحبه ويعشقه، فأضمر في ضلوعه حبه المتمدّق وعبر عن إحساسه بوحشة الغربة وكآبته الملتاعة:

أَذْهَبُ وَخَلْفَنِي هُنَا مُتَأَلِّمًا	لَا تَلْقَنِي سَمْحًا وَلَا مُتَجَهِّمًا!
أَذْهَبُ وَخَلْفَنِي تَذُوبُ حُشَّاشَتِي	وَيُصُّ قَلْبِي مِنْ قَرَارَتِهِ دَمًا
أَذْهَبُ فَلَنْ أَشْكُو إِلَيْكَ عَوَاطِفِي يَوْمًا	وَلَنْ أَلْقَاكَ إِلَّا أَنْكَمًا
أَذْهَبُ وَفِي نَفْسِي لِبُعْدِكَ حَسْرَةٌ	وَالْعَيْشُ بَعْدَكَ صَارَ صُلْبًا عَلَقَمًا

(قطب، ١٩٩٢: ٤٤)

قد تأس النفس وتخرج عن جادة الاعتدال بسبب ما تكابده من معاناة وضياح، فهي تحن إلى حياة مُشرقة زاهرة تخلصها من اغترابها المضيئ؛ فتلجأ إلى الجنة المفقودة التي قلما تجدها على أرض الواقع. فهذا هو سيد قطب يتحدث عن الجنة الضائعة التي يتقلب في نعيمها ويمرح في فضاءها الرحب، وهذه الجنة بقيت "أنشودة" يتغنى بها الشاعر و"ذكرى" تتجول في ذهنه، وفي فكرته الاغترابية يكرر جملة "فقدتكم" ليؤكد شدة إحساس المغترب بضيق الواقع وحنينه إلى رحبة الماضي المُشرق؛ فيقول في قصيدة «الجنة المفقودة»، تعبيراً عن حماسه إلى فردوسه الضائع، فيقول:

فَقَدَّتْكَ فِي النَّفْسِ أَنْشُودَةٌ وَمَعْنَى مِنْ الْفِتْنَةِ السَّاحِرَهُ
فَقَدَّتْكَ ذِكْرَى فَوَا حَسْرَتَاهُ لِفَقْدِ مِنَ الْعَيْنِ وَالْحَاظِرَهُ

(المصدر نفسه: ١٨٣)

كما يُشاهد أيضاً تكرار جملة "تعالى" في قصيدة «نداء الخريف»، والخريف كما هو معلوم، يكون رمزاً للحزن والغربة لدى كثير من الشعراء. كلمة (تعالى) في هذه الأبيات تعبّر عن رغبة الشاعر المُملحة لانتهاز الفرص واغتنام الآتات قبل ضياعها، فتجعل هذه الرغبة الشاعر يدعو حبيبته إلى التواصل والتآلف قبل أن تفوهم الفرص. فالتكرار هنا يُوحى بشعور الوحدة والتفرد الذي يعيشه نتيجة فقدانه للأقران والخللان؛ فحنين الشاعر جاء وليد الغربة؛ إذ لا شعور بالحنين دون شعور سابق بمعاناة الغربة. والحنين هو التشوق إلى ما تأنسه النفس وهو لدى سيد قطب حنيناً إلى الشباب وأيامه الحلوة، وإلى من يلقي فيه الشاعر من الأصحاب والأحباب. فالتكرار في الأبيات التالية أسلوبٌ تعبيرى ناجحٌ يدلّ على قلب الشاعر الحزين وأحاسيسه المؤلمة:

تَعَالَى أَوْشَكَّتْ أَيَّامُنَا تَنْفَدُ
تَعَالَى أَوْشَكَّتْ أَنْفَاسُنَا تَبْرُدُ
بِلَا أَمَلٍ وَلَا لُقْيَا وَلَا مَوْعِدُ

(المصدر نفسه: ٩٨)

النتيجة

نستطيع في نهاية المقال أن نسجل بعض ما توصلت إليه هذه الدراسة من نتائج كما يلي: تأثر سيد قطب بعوامل عديدة في حياته الشعريّة، والتي أحدثت في نفسه الشعور بالاعتراب الذي ترك لمساته وبصماته في أشعاره. فلذلك اهتم هذا المقال بدراسة أهم ما ظهر لدى سيد قطب من الملامح الاغترابية، وهي: الاغتراب المكاني، والزمني، والعاطفي، والروحي، والاجتماعي، والسياسي؛ ولكل هذه العوامل دوره الفعّال في إثارة حالة الاعتراب في نفس الشاعر. فالشعور بالغربة الذي يُراود نفس الشاعر أثناء ابتعاده عن الوطن يشكّل مصدرًا خصبًا يستمد منه الشاعر للتعبير عن حالة اغترابه المكاني، فاستطاع سيد قطب بحسّه المرهف وعاطفته الغزيرة أن يخلق أجواء مفعمة بالشعور لهذا اللون من الاعتراب على غرار شعراء الرومانسية. ففي الاعتراب المكاني لا بدّ أن يقال إنّ الشاعر يحنّ دائماً إلى وطنه الذي غادره، وهذا الحنين يوجد في المزيد من أبياته، حيث يعبر عن عدم ارتياحه في المكان الذي يسكنه غريباً.

وأما فيما يتعلّق بالاعتراب الزمني فهو ممّا دفع الشاعر إلى توليد أبيات يبلى فيها غضبه واستياءه تجاه الدهر والزمن؛ فسيد قطب يستخدم هذا النوع من الاعتراب كنافذة يفتحها أمام نفسه ليشاهد فيها ذكريات طفولته التي حُبست في زنازة الماضي، فيزورها الشاعر بين حين وآخر ليسكن بها نفسه عن أهوال الحياة ومآسيها. إنّ الغربة العاطفيّة لدى سيد قطب تنبعث عن إخفاقه في حياته الغراميّة وإحباطه في الحبّ، ممّا حال دون قيامه بالزواج طيلة حياته. ولا يفوتنا أن نذكر تأثره العميق بفقد أمّه التي كانت دعامةً وركيزةً أساسيّةً يعول عليها الشاعر في حياته. ثمّة نوعٌ من الاعتراب يلمس في أشعار سيد قطب يمكن أن يسمّى بالاعتراب الاجتماعي، فالشاعر يشعر بالابتعاد والاعتراب في المجتمع الذي يعيشه؛ حيث يرى أبناء مجتمعه يمارسون التقاليد والعادات الخرافيّة التي تنبع من الجهل والأميّة التي تتنافى مع أفكاره ورؤاه.

إنّ حالة نفسيّة خاصّة عند سيد قطب تجاه الحياة والكون أدت إلى بروز شعور اغترابيّ لديه، ألا فهو الاعتراب الروحي؛ إذ يرى نفسه غريباً متوحّداً في هذه الدنيا. إنّ هذا الإحساس بالاعتراب هو نوعٌ من انفصال الشاعر عن المجتمع وحتّى عن ذاته، والغربة الروحيّة هذه ليست نابعة عن إحساس الشاعر بالانفراد والوحشة بل كانت ناتجة عن شعوره النفسيّ الذي

تملكه مدى الحياة؛ هذا الشعور جعله يتخيل نفسه كائناً حائراً وتائهاً في متاهةٍ مُخيفَةٍ وفلاةٍ موحشة، فلا يرى فيها من معالم يهتدي إليها ولا نوراً يستضيء به.

لقد تمخّض شعر الغربة السياسيّة عند سيد قطب عن مأساةٍ طويلة، وما كان له أن يأتي بهذه الأشعار المملّثة الحزينة، لولا إحساسه بالظلم والاضطهاد والضياع الذي نال من شعبه ووطنه. فالشعور بالاغتراب السياسي يُساور الشاعر عندما يرى الشباب في وطنه يقبلون الظلم ويرتاحون له، وهم أبعد ما يكون عن الإباء ورفض الظلم، فبدأ الشاعر يحسّ بأنه بعيدٌ عنهم كلّ البعد.

من الظواهر الفنيّة التي توجد كثيراً في شعر سيد قطب الاغترابي هو أسلوب التكرار، لما له من دلالات معنويّة وشعوريّة خاصّة تتخطّى الإطار اللغوي، ولكن هذا التكرار في شعره يكون تكراراً عفويّاً يحاول الشاعر من خلاله إلهاب شعوره الاغترابي وإيصاله إلى المتلقّي، بحيث يشاركه ذلك الشعور والتوتر الذي يحسّ به؛ وهذا ما دفع سيد قطب إلى أن يتخذ هذا الأسلوب منهجاً يحاول من خلاله التأكيد على ما يعاينه من الحزن والأسى والأنين.

المصادر

الف) الكتب

- ابن محمود، حسين، مراحل التطور الفكري في حياة سيد قطب، دار الجبهة للنشر والتوزيع، ١٩٢٩ق.
- إسماعيل، عزّ الدين، التفسير النفسي للأدب، القاهرة، دار المعرفة، ١٩٦٣م.
- البدوي، أحمد، سيد قطب نقاد الأدب (١٠)، القاهرة، الهيئة المصريّة العامة للكتاب، ١٩٩٢م.
- بركات، حليم، الاغتراب في الثقافة العربيّة، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربيّة، ط١، ٢٠٠٦م.
- حسين، عبدالباقي محمد، سيد قطب: حياته وأدبه، المنصورة، دار الوفاء، ط٢، ١٩٩٣م.
- الخالدي، صلاح عبدالفتاح، سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد، دمشق - بيروت، دار القلم والدار الشامية، ط١، ١٩٩١م.
- ستوده، هدايت الله، روان شناسي اجتماعي، طهران، انتشارات آواز نور، ١٣٨٢ش.
- العبد الله، يحيى، الاغتراب: دراسة تحليليّة لشخصيّات الطاهر بن جلون الروائيّة، بيروت، المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر، ٢٠٠٥م.
- قطب، سيد، الأعمال الشعريّة الكاملة، جمع وتحقيق ودراسة: علي عبدالرحمن عطية، القاهرة، مركز الأهرام للنشر والترجمة والتوزيع، ط١، ٢٠١٢م.

_____ ، مهمة الشاعر في الحياة وشعر الجيل الحاضر، كولونيا- آلمانيا، منشورات الجمل، ط١، ١٩٩٦م.

_____ ، كتب وشخصيات، القاهرة، دارالشروق، ط٣، ١٩٨٣م.

_____ ، طفل من القرية، القاهرة، دارالشروق، د.ت.

_____ ، الأشواك، القاهرة، دارالشروق، د.ت.

كشميري، سيد بشير أحمد، عقري الإسلام سيد قطب، القاهرة، نشر دارالفضيلة، د.ت.

هلال، محمد غنيمي، الرومانتيكية، مصر، دارنهضة، د.ت.

يونس، شريف، سيد قطب والأصولية الإسلامية، القاهرة، دار طيبة للدراسات والنشر، ط١، ١٩٩٥م.

ب) المجالات

أبوشاويش، حماد حسن، و عواد، إبراهيم عبدالرزق، «الاغتراب في رواية «البحث عن وليد مسعود»»، مجلة الجامعة الإسلامية، المجلد ١٤، العدد ٢، ٢٠٠٦م.

بلاوي، رسول، وآخرون، «موتيف الاغتراب في شعر يحيى السماوي»، مجلة العلوم الإنسانية الدولية، العدد ١٩، صص ٧٧-٩٣، ١٤٣٣ق.

جمعة، حسين، «الاغتراب في حياة المعري وأدبه»، مجلة جامعة دمشق، المجلد ٢٧، العدد الأول- الثاني، ٢٠١١م.

دلشاد، جعفر، وآخرون، «الغربة في الشعر العربي (الشاعر العراقي المهاجر نموذجاً)»، مجلة العلوم الإنسانية الدولية، جامعة تربيت مدرّس (كلية العلوم الإنسانية)، العدد ١٥، السنة الخامسة، ٢٠٠٨م.

الركابي، فليح كريم خضير، «الاغتراب في شعر المتنبي». المورد. المجلد ٣٦، العدد ٢، ١٤٣٠ق.

سرباز، حسن، «سيد قطب وتراثه الأدبي والنقدي». مجلة اللغة العربية وآدابها، جامعة طهران (فرديس قم)، العدد العاشر، السنة السادسة، ١٤٣١ق.

ج) الرسائل الجامعية

دحماني، حمدة، ظاهرة الغربة في شعر مفدى زكريا (رسالة ماجستير)، جامعة منتوري (قسنطينة)، كلية الآداب واللغات، الجمهورية الجزائرية، ٢٠٠٥-٢٠٠٦م.

روحي، مها، الحنين والغربة في الشعر الأندلسي عصر سيادة غرناطة. رسالة الماجستير في جامعة النجاح الوطنية. ٢٠٠٧م.

الصافي، وفاء عبدالأمير هادي، الاغتراب في شعر أحمد صافي النجفي (رسالة ماجستير)، مجلس كلية التربية للبنات، جامعة الكوفة، ٢٠٠٥م.